ظواهر هامشية في النظام النحوي

النظام النحوي بنية من العلاقات السياقية المجردة التي تجد ما يعبر عنها ويدل عليها في مباني نظامي الأصوات والصرف . فنظام الأصوات يقدم للنظام النحوي العلامة الإعرابية وحروف المعاني وإجراءات العدول عن الأصل والرد إليه والسعي إلي طلب الخفة . والنظام الصرفي يقدم الصيغ والموازين الصرفية وما يعرض لكل منها من قواعد التصريف واختلاف العناصر الصرفية بين الاستصحاب والعدول . وأما النظام النحوي فوظيفته تحديد العلاقات في السياق بين ما يقدمه كل من النظامين السابقين ، مع الاعتماد علي القرائن الدالة علي أنواع العلاقات مع السعي إلي الوصول إلي أمن اللبس في جميع الحالات . ولقد درج أصحاب كتب النحو بسبب هذه الصلة الوثيقة بين الأنظمة الثلاثة علي أن يجعلوا الأصوات والصرف من مواضيع متون النحو وتعليمه . وهكذا يعتمد النحو العربي علي دعامتين من أهم دعائمه إحداهما من عطاء النظام الصوتي وهي (طلب الخفة) والأخري من مطالب السياق وهي (أمن اللبس) . ولكن هاتين الدعامتين لاتخضعان للقواعد ولذلك أراهما علي رغم أهميتهما من الظواهر الهامشية في النظام النحوي ومن ثم أقرب شبها بمسائل فقه اللغة .

يتضح هذا الطابع الهامشي في موقع هاتين الظاهرتين من النظام النحوي من اهتمام فقه اللغة بإحداهما (طلب الخفة) واهتمام علوم الاتصال بالأخري (أمن اللبس) . جاء في الجزء الأول من كتاب المزهر للسيوطي (ج١ ص ١١٥) «قال ابن دريد في الجمهرة . اعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل علي اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة .. الخ» . مما يدل علي رسوخ قدم ظاهرة طلب الخفة في بحوث فقه اللغة . أما دور النظام النحوي بالنسبة لهاتين الظاهرتين فهو الانتفاع بالنتائج مما يبرر وضعهما بين الظواهر الهامشية في البنية

النحوية. إن اعتزاز اللغة العربية بهاتين الظاهرتين له ما يبرره ، لأن اللغة من خلالهما أصبحت أكفأ في الاستعمال من كثير من اللغات المشهورة . دعنا نضرب مثلاً واحداً لتفوق اللغة العربية علي اللغة الإنجليزية في مجال طلب الخفة . إن اللغة العربية ترفض التقاء الساكنين ، وتتخذ من الإجراءات العدولية (عن أصل الوضع) ما يحول بين السياق العربي وهذا النوع من الثقل .

وإذ ترفض اللغة العربية هذا النوع من الثقل نري اللغة الإنجليزية تسمح (في ضوء الفهم العربي لهذه الظاهرة بإلتقاء أربعة سواكن كما في five sixes (أي خمسة أسداس) ، فالكلمة الدالة علي الأسداس تشتمل علي أربعة سواكن كما يلي :

(ك س ث س)

وكلها أصوات مهموسة يزيد الهمس من خفائها علي المقدرة السمعية ومن صعوبة تواليها في النطاق . وليس من السهل علي المتكلم العربي أن ينطقها نطقا سليما ، ذلك لأنه إذا رأي توالي الساكنين ثقيلا فما بالك بتوالي الأربعة؟ ! ومع عدم استعمال النحو لقواعد لتنظيم طلب الخفة نراه يحرص علي الإنتفاع بهذه الظاهرة الهامشية .

إذا تأملنا طابع كل من الظاهرتين السابقتين وجدنا إحداهما وهي «طلب الخفة» لفظية (أي تجد تطبيقا لها في عالم الألفاظ) ، وأما الأخري وهي «أمن اللبس» فتتحقق في عالم المعني . وعند النظر في الظواهر الأخري نجدها أيضا تنقسم هذا النوع من الإنقسام إلي طائفتين إحداهما لفظية والأخري معنوية علي النحو التالي :

اللفظية :

المعاقبة – الموقعية – النقل – الترخص – المشترك اللفظي .

المعنوية :

ظل المعني – لازم المعني – إشراب المعني – مفهوم المخالفة – المجاز.

الظواهر اللفظية

١ – المعاقبة :

معاقبة الشيء لغيره حلوله محله وأداؤه لوظيفته . وقد عني النحاة بتتبع هذه الظاهرة الواحدة ولكنهم أطلقوا عليها طائفة من المصطلحات كما يلي :

* النيابة . كنيابة المفعول عن الفاعل ، ونيابة «كل» و «بعض» عن المصدر كما في قوله تعالي : «فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ»(النساء ١٢٩).
* الإغناء ، كما في قولهم «إن الفعل ترك أغني عن استعمال الفعل المهجور «ودع» بدون تشديد حرف الدال .
* الحلول محل لفظ آخر ، كحلول «يا» محل «أدعو» في النداء .
* السداد مسد لفظ آخر ، كما سدت «أن» وما بعدها مسد مفعولي «ظن» .
* التأويل ، كتأويل الجامد بالمشتق كما في «زيد رجل» .
* العوض ، كتنوين العوض في قوله تعالي : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ» (العنكبوت ٤٠) .
* المنزلة ، كما في قولهم : «ما» نافية بمنزلة «ليس».
* التحويل ، كما في التمييز المحول عن الفاعل أو عن المفعول .
* التشبيه ، كما في قولهم : إن لفظ «رجلا» في نعم زيد رجلا مشبه بالمفعول به .
* التضمين ، وهو استعمال لفظ بإعطائه معني لفظ آخر كما في قوله تعالي : «وَقَدْ أَحْسَنَ بي » (يوسف ١٠٠) أي أحسن إلي (بتشديد الياء) .

استعمل النحاة كل هذه المصطلحات لظاهرة يحددها مصطلح واحد هو المعاقبة .

٢ – الموقعية :

تلك هي الظاهرة التي يسميها اللغويون الأمريكيون : distribution أي التوزيع وهي تجعل موقع العنصر اللغوي جزءاً من معناه . ومن المعروف أن الرتبة (وهي قرينة نحوية) ظاهرة موقعية تكشف عن جزء من المعني إذا كانت محفوظة ، وتعين علي التصرف في الأسلوب والمعني إذا كانت غير محفوظة . وفيما يلي طائفة من الموقعيات التي تنتمي إلي نظام النحو العربي :

* موقع «لم» قبل المضارع واختصاصها به كما في قوله تعالي : «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» (البينة ١).
* موقع الصدارة لأدوات الجمل نحو : « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ» (النساء ٧٨) . واللجوء إلي حفظ الرتبة غير المحفوظة في بعض الحالات نحو : «إياك نعبد».
* العطف ب «أم» بعد همز التسوية ، نحو «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»(البقرة ٦).
* الوقف بالسكون في آخر القول للدلالة علي الموقع .
* عدم البدء بالساكن فالبدء موقع بعد صمت والساكن أقرب إلي الصمت فلا يوحي للسمع ببدء الكلام .
* التخلص من التقاء الساكنين لتجنب الثقل .
* تفخيم الصوت المرقق إذا جاور صوتا مفخما كما في تحويل تاء الافتعال إلي طاء في نحو : مصطفي – واطلع (بتشديد الطاء) – واظطلم – واصطرخ .
* تكسر الهاء من ضمير الغيبة إذا سبقها كسر أو ياء ساكنة نحو فيه وبه ، وتضم في غير ذلك نحو : له – كتابه – لهم – كتابهم.

* تشبع الحركة في ضمير الغائب إلا لمفرد إذا لحقه متحرك نحو : «له معقبات» وتحتفظ بقصرها إذا تلاها ساكن نحو : « لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ» (القصص ٧٠).

٣ – النقل :

الفرق بين النقل والمعاقبة أن النقل إجراء أسلوبي ولكن المعاقبة ظاهرة نحوية . وفي الحالتين يدل اللفظ علي معني لفظ آخر ، لكنه عند النقل لاتحكمه قاعدة ولا يلغي اللفظ المنقول العودة إلي اللفظ الآخر الذي حل اللفظ المنقول محله . أما في المعاقبة فلا يمكن لنائب الفاعل مثلاً أن يصبح فاعلا ولا للفعل الماضي «ودع» أن يلغي ما عوضه ليدل علي معناه بإطراد ، وهكذا في البقية . وفيما يلي طائفة من حالات النقل في الأسلوب العربي :

* تنقل «إلا» من الاستثناء لتدل علي الاستدراك (أي إلي معني «لكن» كما في قوله تعالي :

« طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ » (طه ١ –٢) .

« وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ» (الليل ١٩ – ٢٠).

«إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» الانشقاق ٢٥).

* تنقل «هل» إلي معني التعجب كما في قوله تعالي :

«هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا »(الإنسان ١).

«هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (المطففين ٣٦).

«هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ» الفجر ٥).

* تنقل «إذ» إلي معني أداة إستئناف كما في قوله تعالي :

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» .(الأعراف ١٧٢) «أي لقد أخذ» .

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ »(إبراهيم ٧) (أي لقد تأذن) .

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ» (الحجر ٢٨).

والداعي إلي هذا الفهم أن ما يقدره النحاة لتعلق «إذ » بالفعل «أذكر» يتطلب أن يكون النبي حاضرا عند قول اللّه تعالي للمخاطبين هذا الكلام ، ومن ثم يتعلق الظرف بهذا الفعل المقدر .

* تنقل «لو» لمعني النفي كما في قوله تعالي :

«وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً» (الرعد ٣١).

أي ما كان لنص يتلي أن تؤدي قراءته إلي تغيير طبائع الأشياء فأمر هذا التغيير كله للّه . دعنا إذن نلق نظرة علي المقصود بتسيير الجبال وقطع الأرض وتكليم الموتي ، وكيف إنتهي أمر كل شيء من ذلك إلي إرادة الله سبحانه وتعالي .

* المقصود بالقرآن أي نص مصدره الوحي يمكن أن يقرأ لإتمام غرض إنساني ما .

تسيير الجبال لايستطيعه إلا اللّه ومن ذلك ما يتردد في كتب الجيولوجيا من كلام عن الحركات التكتونية مثل أخدود البحر الأحمر واختفاء قارة أطلنطس – وابتعاد أمريكا الجنوبية عن أفريقيا بعد تقاربهما.

المقصود بالأرض المسافة التي يقطعها المسافر وقطعها سرعة إنتهائها كما حدث في ليلة الإسراء .

أو كلم به الموتي كما حدث لقتيل سورة البقرة إذ أحياه اللّه بعد ضربه ببعضها وكطيور إبراهيم اللاتي دعاهن فأتينه سعياً . ويدل سياق النص علي أن مثل هذه المعجزات لايتحقق إلا بإرادة اللّه ولايمكن لبشر أن يستعين بقراءة نص ما للوصول إلي إنجاز مثل ذلك .

٤ – الترخص :

حين يذكر الترخص ترد القرائن النحوية علي الذهن ، كما يرد علي الذهن أمن اللبس أيضاً . فالرخصة النحوية إهدار لبعض القرائن عند أمن اللبس . والمعروف أن المقصود باللبس تعدد احتمالات الدلالة علي المعني دون مرجح ، ولايتم أمن اللبس إلا عندما تتضافر القرائن الدالة علي المعني فينكشف المعني المراد دون أن يختلط به أي معني آخر . والقرائن المقصودة هنا هي : الإعراب والبنية والتضام والرتبة والربط والسياق . وسنحاول فيما يلي إيراد بعض الشواهد المشتملة علي ترخص في بعض هذه القرائن :

*** العلامة الإعرابية :**

قال تعالي : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » (المائدة ٦٩) برفع «الصابئون» وهي معطوفة علي المنصوبات لأن اللبس مأمون بواو العطف والطابع الديني المشترك بين الألفاظ المتعاطفة .

وقال جل شأنه : «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» رفع لفظ «هذان» (طه ٦٣) علي رغم كونه اسما لإن ومع ذلك ظل هذا اللفظ دالاً علي كونه اسما لإن فهناك قاعدة تمنع أن يتوسط بين إن وإسمها غير الظرف أو الجار والمجرور . أي أن القاعدة المذكورة تحكم بأن «هذان» (وهو ليس ظرفاً ولا مجروراً) لايمكن إلا أن يكون هو اسم إن .

قال سبحانه : «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » (يوسف ١١) «كان من المتوقع أن يكون الفعل «تأمن» مرفوعاً بضمه علي النون، ولكن توالي النونين . في لام الفعل وضمير المتكلمين) برر إسكان لام الفعل من أجل إدغامها في نون الضمير طلبا للخفة ولأن اللبس مأمون بسياق النص الذي يدل علي أن إخوة يوسف يلومون أباهم لعدم ثقته بهم . ولولا ذلك لظن السامع أن «لا» التي قبل الفعل ناهية . وقد قوي المعني بعد ذلك قولهم : «وإنا له لناصحون».

* البنية :

قال تعالي :

«سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ» (الصافات ١٣٠) والمقصود إلياس.

«وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا» (النبأ ٢٨) والمقصود تكذيبا .

«وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا» (نوح ٢٢) والمقصود كبيرا.

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ» (آل عمران ٩٦) والمقصود مكة .

«إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» (ص ٥) والمقصود عجيب.

* الرتبة :

قال تعالي :

«وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» (هود ٣٨).

أي سخروا منه وهو يصنع .

«وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ» (هود ٤٢) .

أي ناداه وهي تجري .

* التضام :

يشمل مفهوم التضام ثلاثة أشياء هي : الافتقار والاختصاص والتوارد .

ومعني ذلك أن الترخص في الافتقار يتحقق في صورة الحذف وفي الاختصاص بإهماله وفي التوارد بالمفارقة المعجمية بين ألفاظ السياق .

فمن الحذف قوله تعالي : «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » (الحاقة ١ - ٢).

فقوله تعالي «وما أدراك ما الحاقة» جملة تعجبية تفسر ما قبلها من قوله «ما الحاقة» الذي حذف منه أفعل التعجب كما حذف من حديث أم زرع

الذي يقول «زوجي أبو زرع وما أبو زرع» . ويبرر فهم التعجب في الآيات السابقة أن النبي عليه الصلاة والسلام تلقى في الوحي الكثير من أخبار الساعة ومن أشراطها مما يؤهله لأن يكون علمه بذلك موضع تعجب . أما فهم الاستفهام من هذه الآية فيحول دونه أن الله أعلم بالحاقة من نبيه ، فكيف يسأله ؟

ومن الحذف أيضاً قوله جل شأنه : «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون» . ففي هذه الآية موضعان يصلح كل منهما لتقدير فاء العطف مع عدم تقديرها في الآخر . وذلك على النحو التالي :

إذا ما أتوك ... فقلت ... تولوا .

و إذا ما أتوك ... قلت ... فتولوا .

ومن الزيادة قوله عز من قائل : «فلما أسلما وتله للجبين ونادياه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا» (الصافات ١٠٣- ١٠٥) . فهنا واوان إحداهما زائدة، والتقدير كما يلي :

فلما أسلما تله للجبين وناديناه .

أو فلما أسلما وتله للجبين ناديناه .

ومنه أيضاً «حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم» (آل عمران ١٥٢) فالتقدير كما يلي :

حتى إذا فشلتم تنازعتم وعصيتم .

أو حتى إذا فشلتم وتنازعتم عصيتم .

أما الترخص في الاختصاص فيشهد له قوله جل شأنه : «ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمزةٍ الذي جمع مالاً وعدّده» (الهمزة ١ - ٢) من أحكام الاختصاص أن توصف النكرة بالنكرة، ولكن قد يترخص فذ هذا الاختصاص فتوصف النكرة بالمعرفة . والذي برر ذلك الترخص (أو الاتساع كما يقال أحيانا) أن

النكرة (همزة) وصفت بنكرة أخري (لمزة) فقربها ذلك من المعرفة . ونظائر ذلك النص القرآني كثيرة ذكرتها في كتاب البيان في روائع القرآن .

ومن الترخص في التوارد قوله تعالي : «وَطُورِ سِينِينَ» (التين ٢) (أي سيناء) وكذلك «سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ»(الصافات ١٢٩) (أي علي إلياس) .

٤ – الربط :

المقصود بالترخص في الربط عدم ذكر المرجع لدلالة السياق عليه ، كما في قوله تعالي : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ» (النحل ٦١). ومن ذلك أيضاً قوله جل شأنه : «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه (أي القرآن) لقول رسول كريم (أي جبريل) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا (أي محمد صلي الله عليه وسلم) بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين وإنه (أي القرآن) لتذكرة للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه (أي القرآن) لحسرة علي الكافرين وإنه (أي القرآن) لحق اليقين «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» (الحاقة ٥٢) .

٥ – المشترك اللفظي :

لباس :

لهذا اللفظ معنيان : أحدهما ما يلبس علي الجسم لستر العورة واتقاء الظواهر الجوية الضارة ، والثاني مصدر الفعل (لابس يلابس لباسا وملابسه) أي خالط يخالط . ومن شواهد المعني الثاني قوله تعالي : «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» (الأعراف ٢٦). فالمقصود بلباس التقوي ملابساتها .

يعد لون :

ولهذا اللفظ معنيان : أحدهما (يتخذون عديلا) والآخر يقيمون العدل . يشهد لذلك ما يلي :

«ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» (الأنعام ١).

«ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(الأعراف ١٥٩).

أعرض :

والأمر كذلك هنا . فقد ورد هذا اللفظ مرتين في آية واحدة على سبيل المشاكلة ، وذلك في قوله تعالي «سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم (أي لا تعاقبوهم) فأعرضوا عنهم (أي أهملوهم) إنهم رجس»(التوبة ٩٥) .

الأوسط :

المعنيان هما : الواقع بين شيئين والأفضل ، وأفضلهما . وفيما يلي شواهد تؤيد ذلك هي قوله تعالي :

«فوسطن به جمعا» (العاديات ٥) أي اتخذن مكانا وسطا بين أفراد هذا الجمع .

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» (البقرة ٢٣٨) أي المتقنة.

«قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون» (القلم ٢٨) أي أفضلهم .

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا» (البقرة ١٤٣) أي فضلي .

الظواهر المعنوية

١ - لازم المعني :

أطلق البلاغيون علي ظاهرة لزوم المعني مصطلح «الكناية» .

ومن الكناية قوله تعالي : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (الفرقان ٧) إذ يلزم من أكل الطعام (ولا اعتراض عليه) أمر آخر هو إفراز نتائج الهضم (وهو أمر لايحسن الكلام الصريح فيه) . ثم إنه يلزم من المشي في الأسواق الاشتغال بالبيع والشراء ، مع ما يقوم به البائع والشاري من المساومات التي تحفل بصنوف الكذب والخداع والمبالغة في

تحسين السلعة وفي تحديد الثمن زيادة أو نقصا ، دون الرجوع إلي التحلي بالخلق الفاضل والصدق في الكلام . وهكذا عمل النص القرآني في آية لاحقة إلي إهمال مبدأ اللزوم والعودة إلي المعني الأصلي ، وذلك في قوله تعالي : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ » (الفرقان ٢٠).

٢ – مفهوم المخالفة :

هذا المفهوم يعد مهربا لمن يريد أن يقول شيئا فيتوسل إلي ذلك بقول ما يناقضه هربا من إفساد المواقف أو خوفاً من عواقب الصراحة . من ذلك ما قاله قوم صالح لنبيهم : «يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا » (هود ٦٢) أي إننا نأسف لأننا لم نعد نرجو فيك خيرا . والمقصود بهذا أنهم رأوا في تذكير صالح بما كان له من احترام في نفوسهم ما يخفف من وقع نفي احترامهم له الآن .

ومن ذلك أيضا قوله جل وعلا : «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (يوسف ٢٢) . فمفهوم المخالفة هنا أن الله سبحانه لم يؤت يوسف قبل البلوغ حكما ولا علما .

ومنه كذلك قوله سبحانه : «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» (سبأ ٤٧) والمعني : أنا في غني عن استرضائكم والإستعانة بكم فإذا كنتم قد عزمتم علي منحي شيئاً من عطاياكم في نظير سكوتي عن إبلاغ الرسالة فأنا في غني عنه فاحتفظوا به لأنفسكم .

٣ – ظل المعني :

إن مفهوم المخالفة يعد ظلا من ظلال المعني . وهذه الظلال متعددة الأنواع ، ومنها ما يلي :

السؤال الوارد : قد يسمع المرء كلاما فيري أن معناه يصطدم بمعلومة سابقة تخالف ما سمعه فيدور بخلده عندئذ سؤال يعينه علي تفسير هذا التضارب بين المسموع والمعهود . وهنا تأتي إجابة هذا السؤال لتضع

الأمر في نصابه .

انظر مثلا إلي قوله تعالي بعد عزم النبي علي الاستغفار لعمه أبي طالب : «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» (التوبة ١١٣) هنا أصبح السؤال التالي وارداً علي الذهن : (لما إذن استغفر إبراهيم لأبيه؟) وهنا جاء الرد بما يلي «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو للّه تبرأ منه».

فظل المعني في هذا المقام هو السؤال الوارد الذي كتمه السامع في نفسه وأجاب عليه اللّه سبحانه وتعالي .

ومن ذلك أيضاً أن اللّه سبحانه وتعالي يقول عن الثقلين (الإنس والجن) في يوم الحشر «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ» (الرحمن ٣٩) فيترتب علي ذلك سؤال هو (كيف ذلك واليوم يوم الحساب؟) عندئذ يأتي الجواب بقوله تعالي : «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» (الرحمن ٤١) . أي أن سيماهم أغنت عن مساءلتهم «وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (القصص ٧٨) .

٤ – دلالة اللفظ المختار :

كان من المقبول في حالة مراودة يوسف عن نفسه أن تنحط قيمة إمرأة العزيز في سياق النص القرآني لما أقدمت عليه من مراودة فتاها وخيانة زوجها . ومن هنا نجد الإشارة إلي هذه المرأة تأتي علي الصورة التالية : «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» (يوسف ٢٣) . والذي يوحي به هذا التعبير أن العلاقة بينه وبينها هي مجرد إقامته في بيتها ، فهي ليست سيدته وليست خارج حياته لأنه من غلمان هذا البيت. ثم إنها لم تكلفه أمراً مشروعا وإنما دعته إلي مشاركتها في خيانة زوجها . وهو أمر رفضه يوسف بقوله : «إنه ربي أحسن مثواي إنه لايفلح الظالمون». ولما حاول يوسف الهرب منه جري في اتجاه الباب ، «وَأَلْفَيَا

سَيِّدَهَا لَدَا الْبَاب»(يوسف ٢٥) ، لم يقل النص هنا (وألفيا زوجها) ، وإنما أراد أن يضع من شأنها فاختار اللفظ المناسب لإهدار الشعور بقيمة الحياة الزوجية.

٥ – دلالة الاستفهام الإنكاري :

إذا بديء الاستفهام الإنكاري بحرف النفي فإن ظل المعني هو الإثبات أو الأمر ، كما في قوله تعالي : «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ »(الضحي ٦) (أي لقد وجدك يتيما) ، وقوله جل شأنه : «ألا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُم» (التوبة ١٣) (أي قاتلوهم).

أما إذا لم يبدأ الاستفهام الإنكاري بحرف النفي فإن ظل المعني هو النفي أو النهي . قال تعالي : «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً » (الحجرات ١٢) (أي لايحب أحدكم ذلك) ، أو يأتي ظل المعني في صورة النهي كما في قوله تعالي : « أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (يونس ٩٩) (أي لاتكره الناس علي الإيمان).

وقد يستفاد النفي من لفظ معجمي مثبت كالاسم أو الفعل فيؤدي إثبات اللفظ نحويا (علي رغم دلالته المعجمية) إلي أن يأتي ظل المعني في صورة النفي كما في قوله تعالي : «ويَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ» (التوبة ٣٢) (أي لايقبل إلا أن يتم نوره) والمعني علي الحصر .

٦ – دلالة الفعل علي نوع المفعول به :

من ذلك قوله تعالي : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ * وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي* حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ * وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا * ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ » (القصص ٢٣ – ٢٤) ، أضيفت العلامة(*) في مواقع المفعول به وحذف المفعول لدلالة الفعل عليه فالسقيا والذود والإصدار لاتكون إلا لقطعان الماشية .

٧ – إشراب المعني الأصلي معني آخر :

من ذلك إشراب الموصول معني الشرط . فقد يستعمل الإخبار بالموضوع علي علاته دون إشراب للمعني ، كما في قوله تعالي : «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة ٢٦٢) . نزلت هذه الآية في مناسبة خاصة بمساهمة عثمان بن عفان في نفقات جيش العسرة ، فلم يكن هناك مجال لإشراب الموصول معني الشرط لأن الشرط عام وعثمان (رضي الله عنه) فرد ومن هنا لم يقترن الخبر بالفاء علي نحو ما يكون في جواب الشرط .

أما حين يكون نص الآية دعوة عامة إلي الإنفاق فمن أنفق فله أجره ولا خوف عليه ومن بخل بالإنفاق فقد ارتكب ذنبا فذلك في أصله معني الشرط . من هنا كان نص الآية الداعية إلي ذلك كما يلي : «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة ٢٧٤).

٨ – المجاز :

ينص تعريف المجاز علي أنه : «نقل اللفظ من معناه الأصلي إلي معني آخر لعلاقة بينهما مع قرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي» فالمعني الأصلي هو المعني المعجمي والمعني الآخر هو المقصود بالكلام ، والعلاقة هي المشابهة والقرينة هي المفارقة المعجمية بين المعني الأصلي ومقصود الكلام . فإذا قرأنا قوله تعالي : «يد الله فوق أيديهم فليس لله يد ، وإنما المقصود هنا هو رضي الله عن ما اتخذوه من قرار متفق عليه . وإذا قرأنا : «ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام فليس في ذلك إدعاء أن لله وجها كوجوهنا ، وإنما المقصود هو الاتجاه إلي الله بالطاعة والعمل الصالح .